٢ – من ذكرياتي في بلاد النوبة:

في الباخرة !!

للأستاذ عبد الحفيظ أبو السعود

وتحدث بعض الناس عن عنيبة مادحاً، فهذا تاجر — أخنى عليه الدهر، فاضطر ليعمل ساعياً في بعض مصالح الحكومة — يحدثنا فوق ظهر الباخرة حديث الخبير العليم، عن أحوال عنيبة وظروفها، وما ينعم به موظف الحكومة، والمدرس خاصة، بشتى ضروب النعم، ومختلف لذاذات الحياة. وأن عنيبة باريس بلاد النوبة عامة! وأنها جنة الصعيد على الإطلاق، جواً، ومنظراً وبعداً عن الحشرات والأمراض . !!

ووقع هذا القول من نفوسنا موقعاً جميلا، فماذا يبغي الإنسان من دهره غير حياة هادئة وادعة، يجد فيها لذاذة العيش، وراحة البال ؟!

وهذا رجل آخر يذكر لنا وفرة الطيور، وكثرة اللحوم، ورخص الخضر، وبعض أنواع الفاكهة، وأنه على استعداد ليوفر لنا كل ما نحتاج إليه، ويورد لنا كل ما نريد، دون أن نحرك ساكناً، أو ننقل قدماً، وأن الدجاجة الكبيرة التي تساوي في القاهرة ثلاثين قرشاً، بثمانية قروش، والزوج من الحمام بسبعة قروش، والرطل من اللحم الضأن بسبعة قروش أيضاً، وثمن أربع بيضات قرش واحد!!

وكانت هذه الأثمان تسترعي انتباهنا، وتستوجب دهشتنا، وكان معنا في الباخرة مهندس ميكانيكي، وقاض شرعي منقول هو الآخر إلى عنيبة، فأخذ كل منا يعلق على هذا الكلام القريب من كل نفس في هذه الأوقات، وفي عينه فرحة، وفي وجهه دلائل الدهش والاستغراب! فكلنا ذاق مرارة الجشع وقسوة الطمع، وارتفاع الأثمان إلى أضعاف ما يجب أن تكون عليه، ولا يزال علمنا بأثمان الحاجيات، ليس ما تسعره الحكومة وتفرضه، وإنما ما نشتري به بالفعل، من أيدي التجار، الذين لا يخافون الله، ولا يخشون عين الحكومة، ولا سطوة القانون.! مكثنا نضرب مع أولئك الذين يدعون أنهم على علم ببواطن الأمور في عنيبة، وكأنما فهموا منا هذا الإحساس، فسمعنا ما جعل الشك يدب إلى نفوسنا في هذه الأحاديث، وأن ما يقال ليس هو الحقيقة والواقع، وإنما أراد هؤلاء الانتفاع منا فأعرضنا عنهم، وبخاصة وأن واحداً من الزملاء كان ناقماً أشد النقمة على هذه الرحلة، ويرى فيها شؤماً أي شؤم، وعذاباً أليماً، وانتقاماً ليس بعده انتقام، وتوهيناً للقوة، وتشتيتاً للشمل الجميع ... !

ولهذا كان يناهض كل مادح لعنيبة مناهضة قوية، ويعارضه في شدة وقسوة، فهو يريد أن يعيش في القاهرة بنصف مرتبه! ولا يحب أن يأكل زوجاً من الحمام في عنيبة، ويأكل في القاهرة أو في بلدته نصف حمامة فقط! ولا يحب أن يأكل في عنيبة رطلا من اللحم ويأكل في القاهرة أو في أي بلدة أخرى ربع رطل فحسب! ولا يريد أن يدخر في عنيبة ثلاثة أرباع راتبه الشهري، ويحب أن ينفق كل مليم من دخله في القاهرة أو أي بلدة أخرى !!

وهكذا مضى يناقش ويناضل في قوة كل من يثني على هذه البلاد بقليل أو كثير، وكأنما كل مادح في عنيبة هو الذي قضى عليه أن ينقل إليها، ليلقى فيها عناء الوحدة القاتل، ومرارة التعذيب الأليم ... !!

ولهذا فإن هذا الزميل، كان يأنس بفريق آخر من الناس، زمّ شفتيه عندما علم أننا ذاهبون إلى عنيبة، ونظر إلينا نظرة رثاء وإشفاق، ورأى أننا مشردون منفيون لا محالة، ولا بد أننا قمنا بحركة سياسية لم ترض القائمين بالأمر، فحكموا علينا بذلك الحكم القاسي، الذي لا مرد له، وأننا سنلاقي هناك صحراء جرداء ولن ننعم فيها بشيء، لأنه ليس فيها شيء ينعم به إنسان. سوى الجبال والرمال، والعقارب، و (الطريشة) وهي نوع من الثعابين يتحوّى عندما يشعر بإنسان قادم نحوه، ثم يقفز إليه، فإذا عضه، فلا علاج أبداً غير قطع هذا الجزء الملدوغ في الجسم، وصب زيت مغلي على موضع الجزء المقطوع ؟!!.

استمعنا إلى هذا، فأدركتنا الرهبة، وملأنا الخوف، واقشعرت منا الأبدان، واصطكت الأسنان، وجحظت العيون، ونظر بعضنا إلى بعض نظرات تنم عن الجزع والهلع، واللوعة والاضطراب. وكدنا جميعاً نوافق الزميل الناقم، وخيل إلينا أن خير طريق نفعله، وأفضل حل نرتضيه لهذا المأزق الذي نحن

، ، هو القناعة بوظيفتنا فى القاهرة ، ومركزنا الذى ارتضيناه لأنفسنا ، وألفنا كل ما يحيط به من بيئة وأساتذة وتلاميذ ، وأنه لا داعى لهذه الترقية التى ستلقى بنا فى أحضان العقارب الشائلة ، والثعابين الرقط ، وسط تلك الصحراء الجرداء ... علينا إذن أن نلوى وجوهنا ثانية نحو القاهرة ، ولتأخذ وزارة المعارف معنا ما شاءت من الإجراءات ، وليفعل الله بعد ذلك ما يريد ... !!

ولكن صوت الواجب هز المشاعر ، ودوى فى الآذان ... الواجب الإنسانى ، وواجبنا كوطنيين مثقفين ، نعمل على رفعة الوطن ، عن طريق تنوير الأذهان ، وتثقيف العقول ، وغرس الفضائل ، ونشر المعارف بين مختلف الطبقات ، وليس بين الطلبة والتلاميذ فحسب ... هذا الواجب الذى أشربته قلوبنا ، وجرى فى أبداننا مجرى الدم فى العروق ... نحيا به ، ونعمل له جادين غير هازلين ، راضين غير كارهين ، مخلصين غير متوانين ولا متكاسلين ... هذا الواجب ارتفع صوته قوياً ، فبدد هذه الأوهام ، وجعل منا قوة دافعة ، وعزيمة وثابة ، فانصرفنا عن هذا الفريق الشبط للهمم ... حتى ذلك الزميل الثائر أفاق إلى نفسه واعتقد أن فى الأمر مغالاة ... !

يا لله ! كيف تضاربت أقوال الناس إلى هذا الحد عن بلاد يدعى كل منهم أنه رآها وخبر أحوالها ، وعاش فيها حقبة من الزمان ؟ ! فمتى نرى بأعيننا خير ما سمعنا لنحكم لها أو عليها ، فأنا بطبيعتى لا أثق كثيراً بما أسمع ، وخاصة وقد لدغت بضع مرات من هذا السبيل ، على أننى بحمد الله مؤمن كل الإيمان ، فأرجو ألا يتحقق فى قول الرسول الكريم : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ...

وخيل إلى أن الأمر كما يقول أخى جمال ؛ حينما علم بنقلى إلى عنيبة .

— إن كل ما تسمع من مدح وافر ، وثناء مستطاب ، على جميع بلاد الوجه القبلى ومديرية أسوان خاصة ، فهو من قبيل التعزية والتسلية . وتخفيف الألم ، والبلاء . كما يقول الناس للرجل المرزأ ، ما فى رزئه من فضل وخير ، وثواب وأجر ، لأنه لا يرى فى رزئه غير وجهه المظلم ... وهذا كله لن يغير من أثر الرزء شيئاً ، ما لم يكن هناك الاستعداد الكافى لتقبله والرضاء به .. !!

ودخلت إلى مقصورتى ، متثاقل الأعضاء ، وقلت فى نفسى :

— صبراً يارب ، ففى سبيلك لا فى سبيل المال فحسب ، خرجنا إلى هذه البلاد النائية ، حقاً إننا خرجنا للمنصب والجاه ، والمال والثراء ، ولكن هذا كله سعى وراء الرزق والقوت يا مولاى ، وأنت سبحانك أدرى بخفايا النفوس ، ومكنونات الأفئدة ؛ وبواطن الأمور ، ولقد اقتضت إرادتك تفضلا منك ، أن تجزل الثواب والأجر لمن جاهد فى سبيل العيش والرزق والقوت ، فأجزل لنا من لدنك العطاء . إنك على كل شىء قدير .

ووقعت من نفسى هذه العبارات موقعاً جميلا ، فأحسست ببرد الراحة ، ولذة النعيم ، ومتعة الهدوء ، كأنما أزلت بهذا ما بينى وبين الله من جفاء ، سببه الاعتراض على مجارى القضاء ، وتصاريف الأقدار !!

ها هى ذى الساعة تعلن العاشرة مساء ، ولما تصل الباخرة إلى عنيبة .. إنها الآن فى طريقها إلى (إدرىم) ، وربما تصل عنيبة فى منتصف الليل ، أو بعد ذلك بقليل ، فاللهم اكتب لنا السلامة والعافية ، والنجاة من هذه الأخطار ...

النيل جميل ، قد انبسطت صفحته فى رحابة رائعة ، ولقد يتسع أحياناً حتى لا تكاد ترى له شاطئاً ... وقد أخذت أنوار الباخرة تنشر على صفحته الرجراجة ثوباً من النور يأخذ بمجامع القلوب ... والهواء عليل ، ينعش الأفئدة ، ويشرح الصدور ، على الرغم من أننا كنا فى السابع والعشرين من نوفمبر ١٩٤٦ ، وقد تركنا القاهرة خلفنا يفتك بردها بالأبدان والجسوم ... والجبال مطبقة علينا أحياناً من الجانبين ، وفى أحضانها نخيل يغمره الماء إلى منتصفه أو يزيد ... ذلك النخيل الذى كان فى يوم من الأيام عماد ثروة طائلة ، وغنى لهذه الربوع والنجوع ولكن مياه الفيضان أضرت به ، فذوى منه الكثير ، وجف الكثير ، ولم يبق منه إلا القليل ، طغت عليه المياه ، فحرمته متعة الحياة !!

لا يزال ضجيج الباخرة ، وخرير المياه المنسابة من بين أجزائها الثلاثة ، يدفع عن عينى لذيذ النوم .

وأخيراً ها هى ذى عنيبة بمبانيها الفاخرة ... مبانيها الحكومية التى تضم عشرات الموظفين ، وها هى ذى الباخرة تقف فى المرفأ بعد الواحدة والنصف بقليل . أى بعد ست وثلاثين ساعة من حين قيامها من الشلال ...

عبد الحفيظ أبو السعود